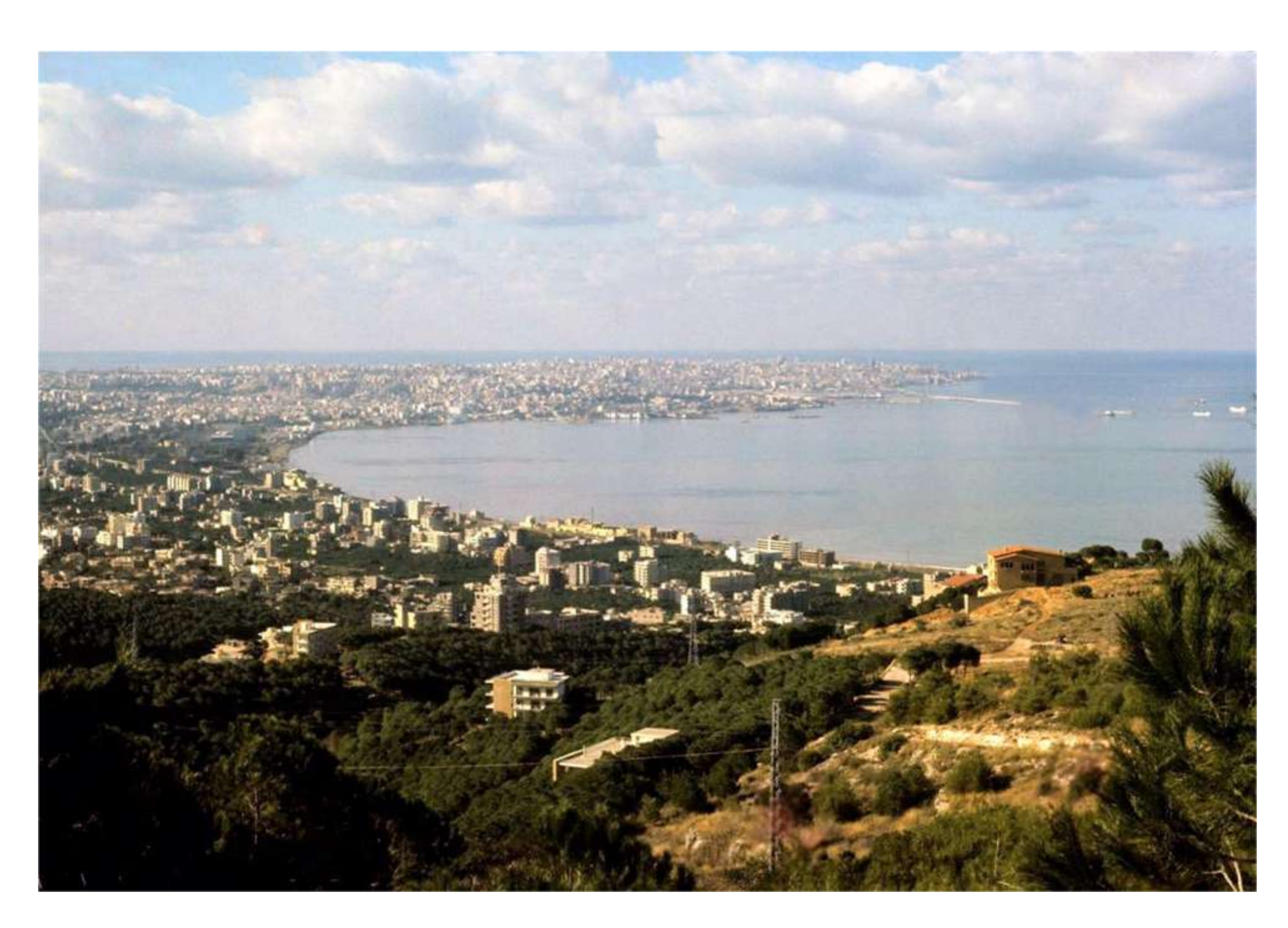
بيروت أبي

عبد الرحمن الداية

عضو جمعية تراث بيروت



لعل أهم ما سيتركه لي والدي يوماً هو ذكريات شبابه وصِباه عن بيروت، مدينتي التي فيها ولدت وأمضيت عمري وكوّنت ذكرياتي التي أتمنى أن لا تُكرهني الظروف يوماً ما على مغادرتها. دأب والدي منذ زمن ليس بقليل على مشاركتي ذكرياته على نحو عفوي وغير متكلف، وأذكر جيدا كيف كان الملل يعتريني في بعض الأحيان حين لا أكون في مزاج يسمح لي بسماع سرد القصص. ولكن من حسنات العمر أن المرء يبدأ في إدراك أولوياته بشكل أفضل ويَعي أن أهلنا وذكرياتهم عن مدينتنا التي نحب ثروة لا يعوضها شيء إذا ما نحن فقدناها بفقدهم.



Looking at Beirut from the mountain, 1967

© Charles H. Mills

ولعلي اليوم أستعيد ما كان يعتريني من الملل في بعض الأحيان بكثير من الندم، وأشكر الله الذي حفظ لي والدي وذاكرته حتى أعي ما أهمية ما كنت أفقده برعونة الشباب. وكي لا تبقى هذه القصص سرداً يفقد رونقه وتفاصيله وقيمته من جيل الى جيل، أحببت أن أدونها كي تبقى من بعد والدي ومن بعدي. إن فكرة الكتابة هذه لم تكن لتولد لولا انضمامي لجمعية "تراث بيروت"، ولولا تشجيع رئيسها وحامي تراث بيروت الحبيبة الدكتور سهيل منيمنة الذي ما إن سمعني مرة أسرد إحدى قصص والدي حتى بادرني بالقول: "ذكريات جميلة، أكتبها".

كان لبيروت وأهلها، كما لأية مدينة أخرى، عادات تميزها وتطبع حياتها اليومية بنكهة خاصة تعطيها فرادة وروحاً تجعلها تسكن مخيلة ووجدان كل من يراها ويعيشها من المرة الأولى. وقد أسر سحرها مخيلة وأعمال الكثير من الأدباء والشعراء والفنانين العالميين. عادات تكاد لا تحصى، لم أعش جمال أغلبها و لكني سمعت الكثير عنها من والدي وعشت بعضها يوم كانت جدتي لا تزال بيننا.



منظر لبيروت 1861. زيتية للرسام البريطاني ادوارد لير

من العادات التي أخذت طريقها إلى الأفول زيارة المدافن. كان أهل بيروت يحيون ذكرى متواهم بالمداومة على زيارتهم في مثواهم الأخير في المناسبات، و خاصة العيدين، حيث كانت العائلة تجتمع عند كبيرها و تتوجه نحو الجبانة، التي غالبا ما كانت السنطية، حيث كان يرقد الكثير من أعلام المدينة من مفتين ووجهاء قبل أن يضطر هؤلاء المتوفون لإفساح المجال أمام إعادة إعمار الوسط التجاري. و كانت العادة أن تصحب العائلة معها شيخا ضريرا يدعى الشيخ مصطفى الشيخ يتلو آيات و سوراً من القرآن الكريم عن روح من فقدوه و ذلك بعد أداء صلاة العيد ثم تجتمع العائلة عند كبيرها و يتزاورون بقية أيام العيد.



عائلة بيروتية بثياب العيد الجديدة سنة 1908

ومن العادات الأخرى التي ميزت أهل بيروت، تأريخ المواليد بالشعر. إعتنى أهل المدينة بتأريخ مواليدهم عن طريق نظم قصائد تدمج بين البلاغة الأدبية وحساب الجُمل فينتج عنها أبيات قصيرة معبرة تجمع بين قيمتها كأدب شعبي ووثيقة تؤرخ الميلاد. ولعل من أجمل ما وجدت أثناء بحثي الدائم في ما تملكه العائلة من إرث هو إحدى هذه القصائد التي نظمها أحدهم لجدي بمناسبة مولد بكره خالد (والدي)، و يعود تاريخها إلى العام 1946 قال فيها:

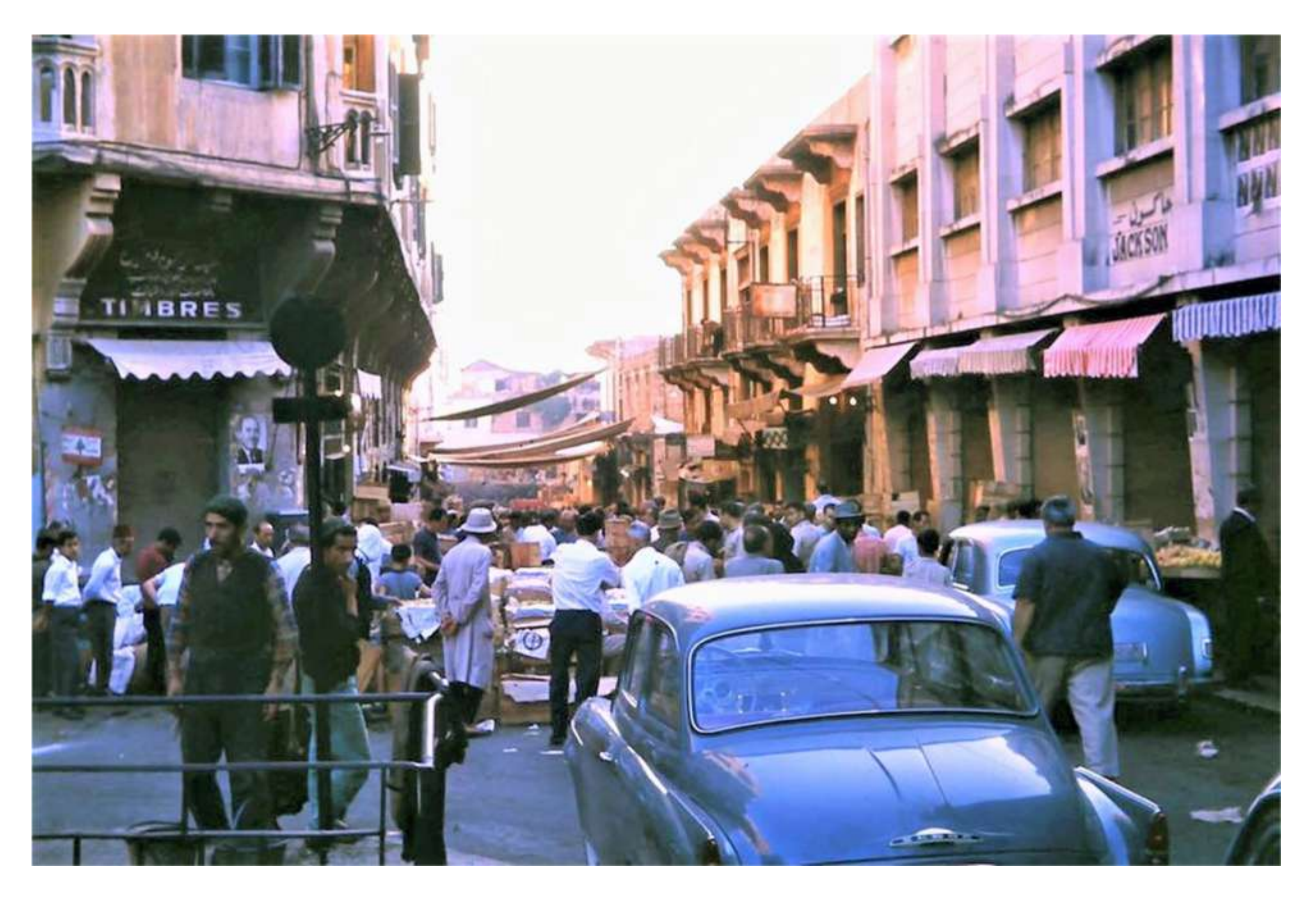
يا عابد الرحمن نجلك خالد لما بدا تحكي ضياء فراقد

سعد السعود قد اتاك مؤرخا أوفى التهاني يوم مولد خالد

وذيلت الورقة الصفراء بمجموعة ارقام تفضي إلى تاريخ مولد والدي. أصبح لهذه القصاصة المصفرّة بفعل الزمن مكانة خاصة لدي حتى جعلناها في إطار وعلقناها حيث ترى دوماً.

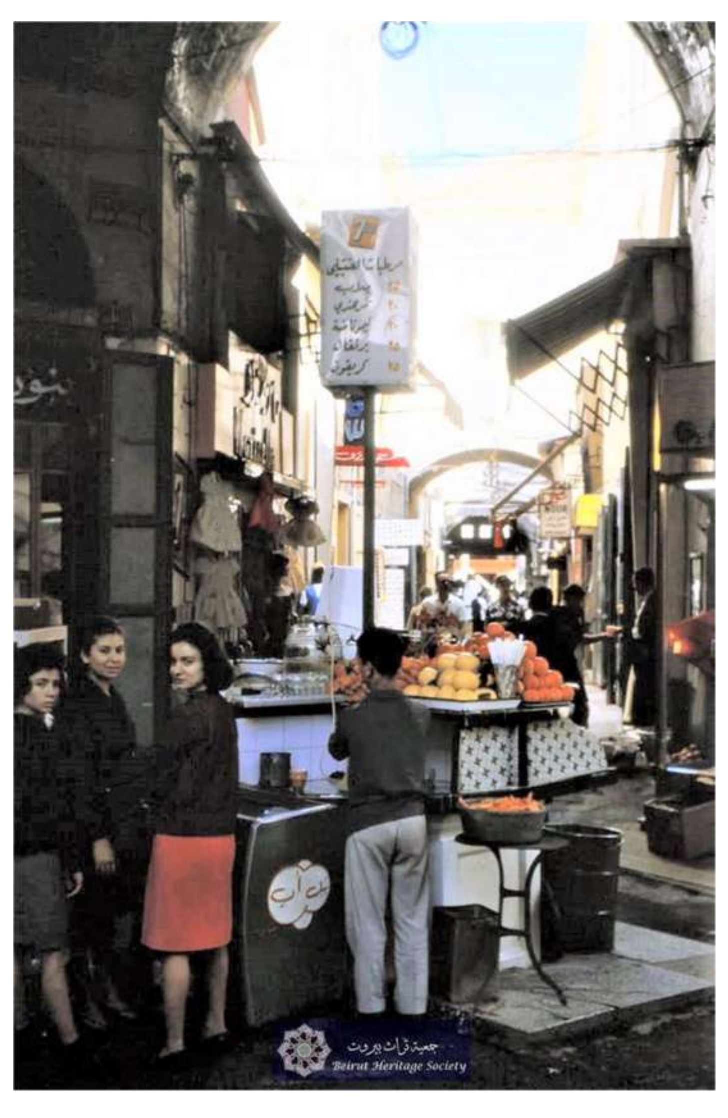


إلى جانب حياتهم الإجتماعية و عاداتهم، كان لأسواق المدينة القديمة مكانة بارزة ميّزت بيروت بنكهة خاصة تركت أثرها عند كل من ارتادها. لم يسعفني العمر أن أرى أسواق بيروت إلا من خلال ذكريات صبا والدي، أطال الله بعمره، الذي كان غالباً ما يتجول فيها بحكم عمل جدي رحمه الله كخياط في سوق أياس. هذه الذكريات كان لها الأثر البالغ إن لم يكن الأكبر والأوحد في الصورة التي كونتها عن هذه المدينة و أيامها و أسواقها التي تضج بالحياة و العمل، وأناسها الطيبين يروحون ويغدون بلا كلل سعياً في شؤونهم وطلباً لأرزاقهم.



من أسواق بيروت في الستينات

أغلب هذه الذكريات تدور حول جدي وعمله و جيرانه في سوق أياس. كان جدي خياطاً متخصصا بالبدلات يشغل دكانا صغيرا على درج هذا السوق مقابل محلات الحفار (محل سويت مود Sweet Mode وبالقرب منه بركة العنتبلي الشهيرة). تعلم جدي المهنة على يد خياط يدعى نجيب عبود كان يشغل نفس الدكان قبله. أغلب زبائن جدي عبد الرحمن، الذي أفخر بحمل اسمه، من كبار عائلات بيروت كآل شاكر وعالم وسلطاني ومزبودي، الذين كان منهم النائب الراحل زكي مزبودي، أحد زبائنه. من أجمل وأطيب الذكريات أن أحد زبائن جدي المقتدرين من آل مزبودي كان في بداية رمضان يوصي بخياطة البدلات لأبناء أعمامه هدية بمناسبة الشهر الفضيل والعيد كي تعم فرحة العيد أفراد العائلة.



سوق أياس أيام أبي

كان عمل جدي موسمياً يبدأ مع أول يوم من رمضان ولا ينتهي إلا بحلول العيد حيث كان يداوم بلا كلل من وقت السحور حتى أذآن المغرب طيلة الشهر كي يسلم البدلات لأصحابها قبل عيد الفطر. و كما عيد الفطر، كان موسم عيد الأضحى يبدأ قبل شهر منه و في كلا الموسمين، كان جدي يعمل جاهدا لينهي بدلة كاملة يوميا!

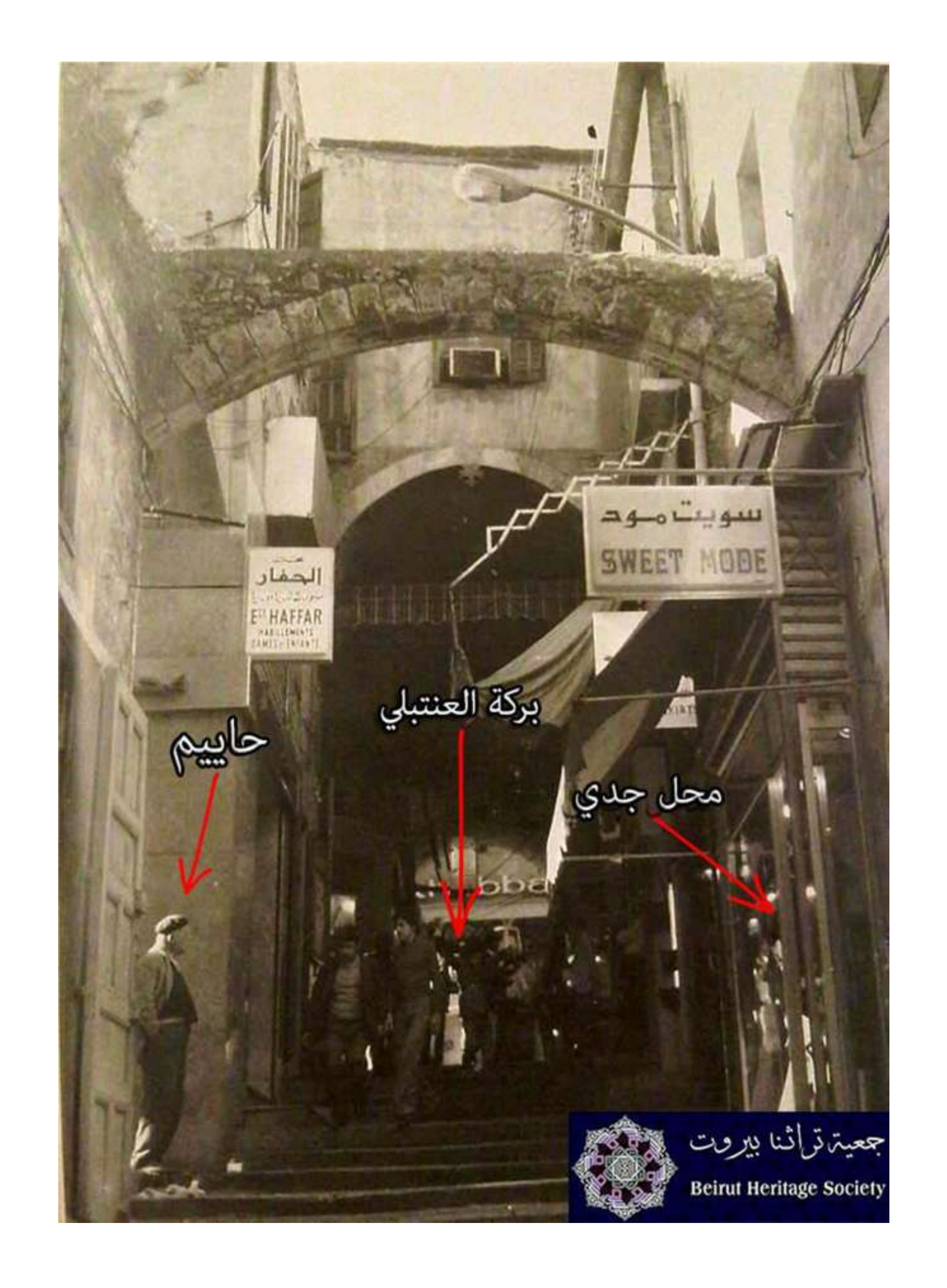
كان لسوق أياس زوار يوميون من الباعة المتجولين ألفهم شاغلوا وروّاد هذا السوق وانتظروا حضورهم يوميا حتى أضحت زيارتهم موعدا غير معلن. من هؤلاء الزوار صياد من مدينة صيدا يأتي ظهر كل يوم مع مساعده حاملا فرش السمك الطازج وسلة ويدور في السوق حتى يبيع جميع ما اصطاد ثم يغادر. العجيب في أمر هذا الصياد أنه لم يكن يحمل معه ميزانا ولكنه لم يبخس الكيل يوما، بل كان كيله غالبا ما يكون أكثر قليلا مما طلب الشاري. أما الزائر الثاني، فكان أبو عبد الكبي الذي يتجول في السوق لبيع القضامة التي يصنعها ثم يغادر عندما ينفذ ما في جعبته من حلوى. أما الثالث والأخير، فكان صاحب محل أبو الملوك قبل أن ينتقل من الوسط إلى منطقة قصقص بسبب الحرب الأهلية.



باتجاه مدخل سوق أياس وباقي الأسواق في محلة باب ادريس 1971

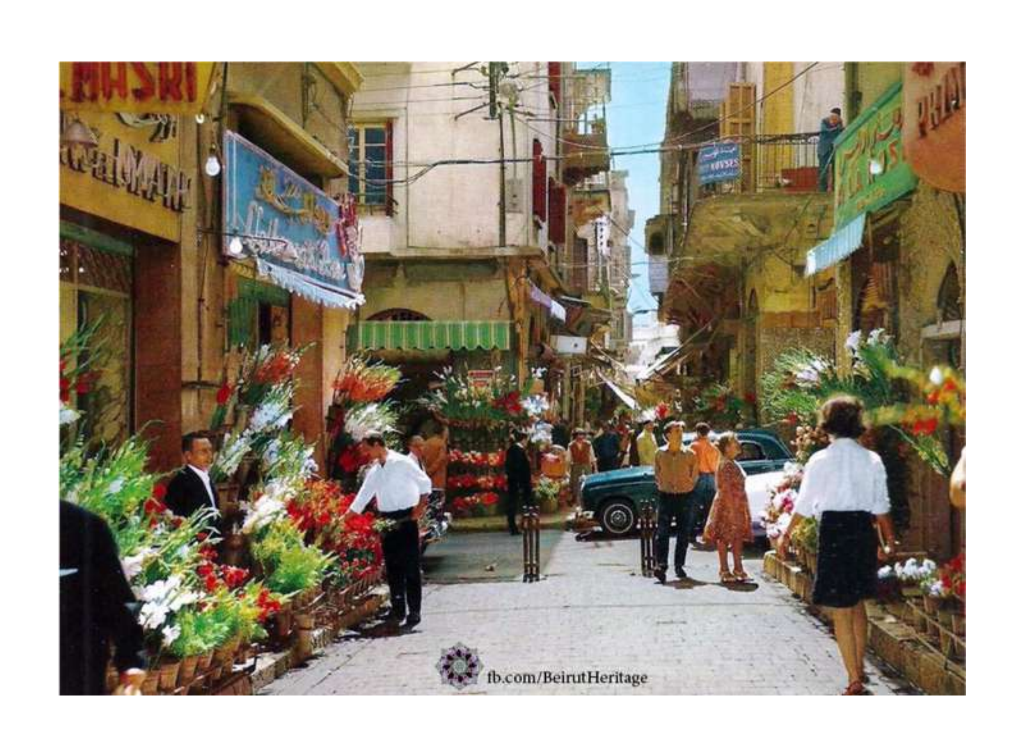
لعل أجمل ما في أسواق بيروت القديمة "الجيرة" التي كانت تمتد من جيل إلى جيل فتجمع التجار والحرفيين بروابط تكاد تصبح عائلية فيتشاركون أيامهم و همومهم و أفراحهم.

مقابل دكان جدي الصغير، كان هناك مصلح مظلات يدعى حاييم. برغم محاولاتي العديدة، لم أفلح في جعل والدي يتذكربقية إسمه. كان حاييم يهوديا من أهل بيروت يعمل كحرفي امتهن إصلاح المظلات، يوم لم تكن الأشياء تصنع لتبلى، بل لتعيش مع صاحبها دهراً و ترى معه عمراً يجعلها تصبح جزءاً منه.

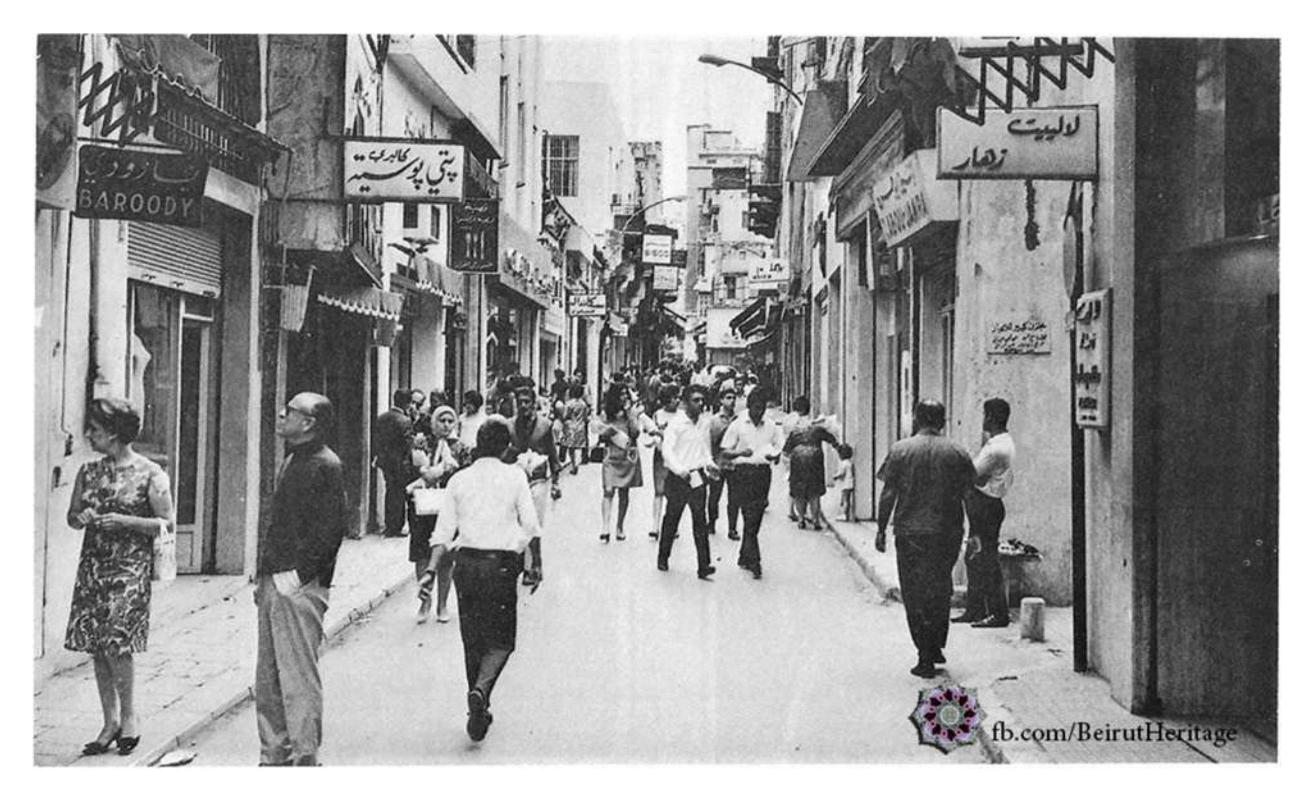


كان دكان حاييم في زقاق صغير على درج سوق أياس، مقابل دكان جدي "سويت مود". لتصل اليه، عليك أن تلج الزقاق وتتسلق درجا ضيقا بلا درابزون لتصل إلى الطبقة الثانية حيث كان يعمل في مشغله. أذكر يوم أريت والدي صورة نشرت على صفحة جمعيتنا "تراثنا بيروت" يظهر فيها دكان جدي ويقف مقابله في الشمس رجل ربما في عقده السابع يعتمر قبعة "بيريه" إذ ابتسم بعفوية وكأنه عاد إلى ذلك الزمن و قال:"هذا حاييم مصلح المظلات"، وأخذ يصف مشغله و الزقاق و الدرج حتى صرت و كأني هناك أمشي معه. و لحاييم هذا قصة مع شهر رمضان، حيث كان يزور جدي قبل بدء الشهر بأيام و يقول له "حاج عبد الرحمن، ستصومون يوم كذا وأول أيام العيد يوم كذا". ولما سألت والدي عن سبب معرفة حاييم و حساباته التي يقول لي أنها لم تخطئ يوما، أجاب أن يهود المدينة كانوا الأبرع في الحسابات الفلكية المتعلقة بولادة القمر.

في نفس الزقاق الذي يوصل إلى مشغل حاييم، كان أحمد بعجور يعمل كوكيل لرجال أعمال وأمراء خليجيين وخاصة الكويتيين منهم، يوم كانت بيروت مركزاً لرجال الأعمال وبوابة التجارة والإستيراد و التصدير ومعبراً للترانزيت من والى سوريا ومنها الى الخليج العربي الذي كان قد بدأ يشهد نهضة كبيرة و كان بحاجة إلى كل ما تستطيع بيروت بتاريخها العريق كحاضرة تجارية وثقافية أن تمده به.



وكان عفيف العنتبلي يشغل دكان فوال بجانب مكتب أحمد بعجور، أما جار جدي المباشرفكان مشغل بيرلا لشخص أرمني لم يعد والدي يذكرعنه الكثير ما عدا تخصصه بتكسير التنانير يوم كانت رائجة وأنه لم يقبل يوما أن يتقاضى من عماتي أي ثمن عند ما كنّ يرسلن إليه تنانيرهن للتكسير. وبجانب بيرلا عمل أحمد السروجي إسكافياً وصانع أحذية، وقد أثار عمله فضول والدي الذي كثيرا ما كان يتردد عليه وعلى مشغل حاييم لشغفه بالأعمال اليدوية وصناعة الأشياء. أما جار أحمد السروجي، فكان حلاقاً يدعى فؤاد الشايب ويقابله عبر الشارع حلواني من صيدا لم نجد لتذكر اسمه سبيلا. صعودا باتجاه بركة العنتبلي، شغل الصفدي، وهو أيضا من يهود بيروت، دكانا لبيع الألبسة الصوفية. أما في الطريق الضيق الذي يصل سوق أياس بسوق الطويلة، فقد شغل نبيل و أنجي دكانين ذائعي الصيت لبيع الألبسة ذات النوعية العالية.



واجهات محال الأزياء الراقية في سوق الطويلة المحاذي لسوق أياس

وعند ذكر سوق أياس لا بد من ذكر "بركة العنتبلي" الشهيرة التي ارتبط اسمها بهذا السوق منذ القدم. كتب الدكتور منيمنة في بحث له عن تاريخ هذه البركة ما يلي: " في سنة 1864، أنشأ السيد سعد أفندي حمادة وإخوانه سوقاً بجانب سوق الطويلة سموه سوق السيد نسبة لوالدهم السيد عبد الفتاح آغا حمادة الذي كان متسلم حاكمية بيروت في أواخر عهد إبراهيم باشا (حوالي 1840). وفي سنة 1877 قام السادة أياس بشراء هذا السوق الذي صار يعرف بسوق أياس.

عند إنشاء هذا السوق جعلت فيه بركة جميلة بنافورة تتوسط تقاطع أقسام منافذه الأربعة التي أقيم عليها قبة كتب في أعلاها وعلى الجوانب الأربعة تأريخ من نظم حسين بيهم، هذا نصه:

لله قبة سوق شاد رونقه

بنو حمادة آل الجاه والنسك

تنسيك من جلق باب البريد كما

بالسعد أرخت: تزري قبة الفلك

(انظر: منزول بيروت للمؤرخ عبد اللطيف فاخوري)

وفي سنة 1936 إتخذ أحد الأشخاص من آل العنتبلي بسطة له على هذه البركة لبيع العصائر، وفي سنة 1955 قام السيد أحمد العنتبلي بتطويرها لتصبح بركة دائرية يلتف حولها الزبائن لتناول المرطبات خاصة الجلاب الذي اشتهر به بالإضافة لليمون وقمر الدين، وأنواع الحلوى الشعبية مثل القشطلية والمغلي والقطايف وغيرها، وصارت هذه البركة محطة دائمة لرواد الأسواق البيروتية والسياح وشخصيات لبنانية وأجنبية.

أزيلت هذه البركة خلال عمليات هدم الأسواق القديمة بعد الحرب الأهلية، واستبدلت ببركة "حديثة!" بتصميم عصري تتألف من جرنين رخاميين كبيرين، يتوجهما جرن ثالث أصغر."



بركة العنتبلي أيام زمان

حبر على ورق مقاس 35 بـ 45 سم بريشة الفنان التشكيلي اللبناني الأستاذ أنطوان مطر.

خلافا للمرات العديدة التي سمعت فيها هذه القصص سابقا، وجدتني اليوم، و أنا أكتب هذه السطور كمن يعود في الزمن إلى أيام إحن إليها ولو لم أعشها، أيام كانت بيروت لأهلها و لكنها كانت تفتح بابها و صدر دارها لكل زائر، أيام طبعت البساطة و صفاء القلوب الناس بحياتهم اليومية وتعاملاتهم. وجدتني أتجول في أسواق لن يكون لي أن أراها إلا بعين والدي. هذه بيروت التي أحب، بيروت التي أتمنى أن لا أغادر يوما. سأترك والدي الآن يرتاح قليلا من عناء الإجابة على أسئلتي الكثيرة التي لا تنتهي وسأعود إليه لاحقا لأسمع المزيد عن أسواق وعادات أخرى.



BEIRUT HERITAGE

Phone # +961 3 225 286

Email: info@beirutheritage.org

www.beirutheritage.org